محور المحاضرة: نظريات الحجاج المنطقي والطبيعي

مدخل: للحجاج تاريخه الخاص نستقرئه من تاريخ الأفكار الفلسفية. ويسعنا أيضا تقسيم تاريخه إلى مستويين: تاريخ نظري وآخر عملي. وينظر إليه من جهة تطبيقاته العلمية الفلسفية من زاويتين: طبيعية ومنطقية. فالنظريات الحجاجية تعرف تطورا حين يتوازى الحجاج مع عوامل نشأته وبيئة مراسه، وأي كان موضع السياقات الحجاجية في مختلف الخطابات البلاغية فإن ما يؤسس لتطور النظريات الحجاجية أيضا الخلفيات الفكرية المنطقية، ثم المقتضيات الطبيعية، الموصولة بها أيضا.

01/ نظريات الحجاج المنطقي:

أ ــ نظرية الاستلزام في التحليل المنطقي: ثمة مقاربات ودراسات بحثية جادة نزعت إلى تأسيس سياقات للحجاج مرتكزها المحوري هو المقاربات الاستنتاجية المنطقي، حين يكون له مقصد تحييد الحطاب الحجاجي عن كل أشكال المغالطات الحجاجية، التي سبق وعهدنا لها نماذج في الخطاب الحجاجي اليوناني عند السفسطائيين. وللاستلزام المنطقي الحجاجي أشكال يرد من خلالها نحو الأمثال، وقد تجلت أعمال بعض الدارسين لنظريات الحجاج المثلي في بيئات مثل أوربا الشرقية وألمانيا وفرنسا مثل أبحاث 'كانيو' و'كريكمان' و 'مارتان ريجال' وغيرهم ممن أبانوا عن ضرورة إيلاء إيلاء الأهمية للبحوث التي تندرج ضمن التحليل المنطقي الصوري. وقد وردت بعض الإشارات عند 'بوريدان' و'سوار' في الكتاب الجماعي الذي نشر في جزأين بعنوان: 'غنى الأمثال' ضمن منشورات جامعة ليل بفرنسا سنة 1984... أشار 'بوريدان' في مقدمته للكتاب إلى أن مبدأ الاستلزام يرد في مقدمة سمات تعيين المثل، وهذا الأخير يقدّم عامة باعتباره مستقلا أو حكيا مصغرا له تنظيم منطقي يحكمه أساسا مبدأ الاستلزام[1]. ولا ريب أن الأمثال والحكم وقصص الناس وأحجياتهم التاريخية التي بلغنا منها بعضا في تاريخ الشعوب، لتوحي بأن القراءات الأنثروبولوجية والأركيولوجية قد اغفلتها من جهة استنباط دلالاتها " فإن الحقائق العامة (vérités générales) والمعاني الكلية التي تعبر عنها هذه الأمثال تطابقها وتوازيها تشكيلات دلالية ــ منطقية خاصة، غالبا ما يتم إرجاعها إلى مبدأ الاستلزام العام. والاستلزام كما يحدده 'ستراوسن'... هو كالتالي: ' إذا قلنا إن قولا يستلزم قولا آخر فمعناه أنه سيكون غير منسجم ومتسق إثبات القول الأول وينفي القول الثاني ' فهنماك استلزام مثلا بين القول1 والقول2:

1ــ إذا كان المطر يهطل، فالرض مبللة.

2 ــ إذا كانت الأرض غير مبللة، فالمطر لا يهطل.

(1) - أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الجديدة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص ص 67 - 68.

وكذلك بين 3 و 4:

3 ــ زيد أعزب

4 ــ زيد غير متزوج[2]

الحجاج من منظور منطقي: ثمة مؤسسون بارزون لنظريات الحجاج المنطقية، تضمنتها أعمالهم العديدة في الدراسات الحجاجية المعاصرة مثل أطروحات فيلسوف المعرفة 'تولمين' Toulmin حيث سعى إلى إحداث تطوير جدي وفعال لنظرية الحجاج ولكن ليس قبل توجيه انتقاداته واعتراضاته على مقررات الوضعية المنطقية، التي يتضح مفهومها من خلال بحثه المقدم في سنة 1958م والمعنون بـــ : استعمالات الحجة The uses of argument الذي يهدف إلى(دراسة الدوات الحجاجية في الاستخدام العادي للغة[3] وعرض ذلك بعدة رسوم بيانية على ثلاثة مراحل على النحو التالي:

الرسم الأول: وفيه نجد أن الرسم الحجاجي ذو ثلاثة أركان أساسية هي المعطى (م) والنتيجة (ن) والضامن (ض) ويصاغ على النحو التالي:

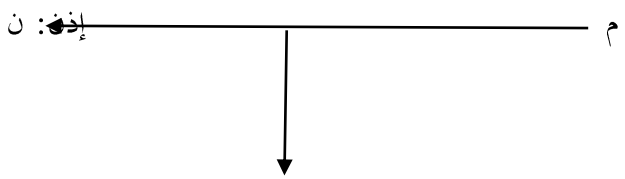

نظرا إلى أن

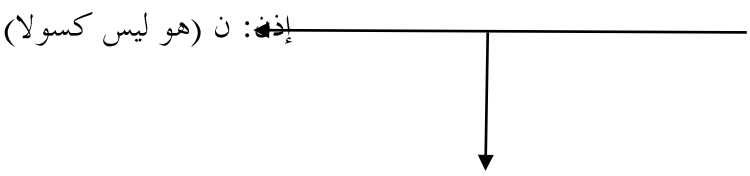

نظرا إلى أن: ض (أغلبية الطلبة ليسوا كسلاء)

وقد تنضاف وضعيات تؤشر لمعطيات أخرى نحو: اللهم إلا إذا كان بعضه غشاشون.

والملاحظ في ما تم عرضه في المخطط البياني المزدوج لتولمان يتضح لنا أن الحجاج 'تولمين' برهان منطقي أكثر منه حجاجي بلاغي، ذلك انه في اعتماده للضامن لم يكن هدفه الحجاج قدر ما كان هدفه البرهنة المنطقية الواقعية، وليس الصورية التي تبنى على مجموعة من المعطيات المنطقية الواقعية. كما أن 'تولمين' لم يعط الجمهور حقه في العملية الحجاجية بقدر ما أولى

(2) المرجع نفسه، ص ص 68 - 69.
(3) - خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، بيت الحكمة، الجزائر، ط2، 2012، ص 87.

أهمية كبرى للحجج والبراهين المستعملة في العملية البرهانية[4]. وفي مقام مقاربة الحجاجبآلياته العقلانية المنطقية، يدافع كل من بيرلمان وتيتيكا عن هذا الطرح الذي يعتقدان انه أسمى نظرية يسعها التمكين لمقاصد واهداف الحجاج، بما يتطابق مع حقولها المجالية التي أنشئ لأجلها. و موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من طروحات أو تزيد في درجة ذلك التسليم. وذكرا في مواضع أخرى أن غاية كل حجاج أن يجعل القلوب تذعن لما يطرح عليها من آراء، أو أن تزيد في درجة ذلك الإذعان. فأنجع حجاج ما وفّق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين... وإذا كان مفهوم الحجاج عند تولمين يستند في جوهره إلى صناعة البرهان في المنطق، فإن مفهومه عند برلمان وتيتيكا يستند في حدود ما فهمناه من التعريفين السابقين إلى صناعة الجدل من ناحية وصناعة الخطابة من ناحية أخرى[5].

" لقد كان الحجاج عند بعض الفلاسفة ومنهم باسكال فيما يقول لنا المؤلفان، حجاجين: الحجاج الأول قوامه العقل، وهو حجاج الفيلسوف يتوجه به إلى الجمهور، ضيق يرمي من ورائه إلى إسكات صوت الهوى فيه وإلى جعل العقل (لا عقل شخص بعينه) قوام الاستدلال، فهو حجاج لا شخصي ولا زمني. والحجاج الثاني يرمي إلى دغدغة العواطف وإثارة الأهواء استنفارا لإرادة السامعين ودفعها إلى العمل المرجو إنجازه"[6].

02/ / نظريات الحجاج المنطقي الطبيعي: لا يسعنا تبرير وظيفية المنطق الحجاجي الطبيعي إلا بوصله بمجاله وهو اللغة. وعليه لإن المنطق الطبيعي هو منطق لغوي، يستعمل خطابا لفظيا تبادليا بين متكلم مرسل يمتلك سلطة اللغة أو اللوغوس، وسامع طبيعي يوجد في زمان ومكان، ويحمل ثقافة معينة، وليس هذا المخاطب سامعا كونيا كما يقول "شاييم بيرلمان' (CH. perelman). ومن ثمة يمتلك كل خطاب لغة طبيعية بعدا حجاجيا ما دام مرتبطا بالسياق الخارجي (الأطراف التواصلية ـــ الزمان ـــ المكان ـــ الثقافة). ويعني هذا أن المرسل يقدّم إلى المخاطب صورة لفظية حجاجية في شكل خطاطة مرسلة بلغة طبيعية. وهذ الخطاطة الحجاجية هي نتاج سلوك اجتماعي، وهي جزء من سيرورة التواصل[7]. مما لا ريب فيه أن الخطاب الحجاجي لا ينفك عن الخطاب البلاغي من حيث استعمالاته وآداءاته اللغوية، كذا لا يتحدد للخطاب الحجاجي أثر إن لم يستوثق بنياته واستنتاجاته من العمليات المنطقية والمعرفية التي لا يمكن للمتكلم أن يبنيها للسامع بغرض إعادة بنائها وتوظيفها في مختلف الصور الخطابية المقترنة بالوسط السوسيوثقافي بصورة عامة.

وتنبنى خطاطة التواصل عند 'غرايس' على المرسل الذي يرسل خطاطة في شكل تمثلات واقعية ومعرفية وذهنية إلى السامع الذي بدوره يعيد بناءها من جديد. وتنجلي الرسالة في تشكلها الجديد من خلال تبادل التمثلات المشتركة بينهما، سواء كانت ثقافية أم اجتماعية أم لغوية أم معرفية. ولا يسعنا بناء الخطاطة الحجاجية بمعزل عن أطرها الزمكانية أو الثقافية حين يقتصر المقام على توجيهها لغير السامع، وهذا ما يعطي للخطاطة بعدا حجاجيا بامتياز، وعليه فالخطابة هي صورة

(4) - عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، منشورات كلية الآداب، تونس، ط1، 2001، ص ص 23 - 25.
(5) - المرجع نفسه، ص ص 27 - 28.
(6) - المرجع نفسه، ص 28.
(7) - جميل حمداوي: من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2014، ص 49.

سيميائية تتعلق بالموضوع والمرسل والمخاطب على حد سواء[8]. وافضل من عرض لمقاربة بينية واضحة المقاصد بخصوص ما يصل الحجاج بالمنطق الطبيعي هو 'جان بليز غرايس' (Jean Blaise Grise) والتي من دونها لا يسعنا تأسيس البناء الحجاجي، ومن الضروري أن يعبأ الحجاج بوظيفتين أساسيتين: التأثير والإقناع فالتأثير مرتبط بالعاطفة والوجدان، ويرتبط الإقناع بالعقل والمنطق. لأجل ذلك فنظرية 'غريس' تهتم بالإقناع العقلي الذي يرتبط بالمنطق الطبيعي... ويعني هذا أن المنطق الطبيعي للحجاج يهتم بدراسة المضامين وتبيان العمليات التي ينبنى عليها الخطاب منطقيا. ويرى 'إميليو غاطيكو' (Emilio Gattico) بأن الخطاطة الحجاجية تحقق ثلاثة أنواع من الانسجامات: انسجام داخلي يقوم على النماذج والأنظمة الصورية، والانسجام الخارجي الذي يتعلق بالقواسم المشتركة بين أطراف التواصل في سياق معيّن، والانسجام الخطابي الذي يتعلق بمجموعة من التمثلات العقلية الوجدانية التي تكون بين أطراف التواصل[9]. فالمنطق الطبيعي على هذا النحو هو منطق احتواء في إطار خطاب تفاعلي ضمني بين الآداءات السلوكية المهارية للمخاطب وبين بنية التواصلات الواضحة المعالم بين المحاطب وبين السامع بما يجلي أثر الإعمال الذهني الذييشكل الملكات والوظائف السيكولوجية، التي شأنها أن تعقلن الآداء وتؤسس وصائل تقريب فهمية نسقية بينهما، بما يتلاءم وخصوصية المرتكزات السوسيوثقافية في إطارها الزمكاني المحدد.

خاتمة: المنطق الحجاجي الخطابي سواء كان عقلانيا أو طبيعيا يجب أن يفي بضرورات التواصل عرفانا وفهما ونزوعا إلى إنماء القدرة الحجاجية التي شأنها أن تزيح التناقضات التواصلية لتعيد للذوات عرفانها، لتعيد أنتاج الخطاب على نحو تداولي يدين في للمنطق بالولاء اتساقا وللغة الخطاب وتداولياته وفاء والتزاما كي لا يتبدد نسق التواصل التداولي في مقتضياته البراغماتية، وكذا من جهة مقوماته وأطره النسقية العقلانية المنطقية.

(8) - المرجع نفسه، ص 50.
(9) - المرجع نفسه، ص ص 50 - 51..